الفصل الاول

عالم "الجنون.. و المجانين "

.. نظرة عامة

مدخل الى فهم .."الجنون ":

لعل الأمراض النفسية من اكثر الموضوعات التي يحيط بها الغموض الذي يدفع الناس إلى تبني أفكار وتصورات غير واقعية حولها، ومعتقدات غريبة عن أسباب المرض النفسي، الذي يتعارف العامة علي وصفه بحالة "الجنون" وعن المرضي النفسيين الذين يطلق الناس عليهم وصف "المجانين" وتمتد المفاهيم الخاطئة لتشمل تخصص الطب النفسي بصفة عامة، والذي اصبح اليوم رغم كل التطورات الحديثة في أساليب العلاج موضع نظرة سلبية من جانب مختلف فئات المجتمع .. ولعل ذلك هو ما دفعني إلى تناول هذه القضية الهامة ليس دفاعا عن الطب النفسي بل من أجل تصحيح بعض المفاهيم السائدة بعرض بعض الحقائق والآراء حتى نتبين الجانب الآخر من الصورة.

الجنون والمجانين :

بداية فإنني - بحكم عملي في مجال الطب النفسي - أؤكد أنه لا يوجد مرض نفسي أو عقلي اسمه " الجنون " بل إن هذا اللفظ لا يعني بالنسبة لنا في ممارسة الطب النفسي أي مدلول ولا يعبر عن وصف لحالة مرضية معينة. غير أننا لا نستطيع إنكار حقيقة هذا الوصف المتداول بصورة واسعة الانتشار بين الناس من مختلف الفئات لوصف المرضي النفسيين (حيث يطلق عليهم المجانين) وأحيانا يمتد هذا الوصف ليشمل كل ماله علاقة بالطب النفسي. فكل من يتردد علي المستشفيات والعيادات النفسية هو في الغالب في نظر الناس جنون. وانطلاقا من ذلك فإن المستشفي هي مكان للمجانين والأطباء النفسيين أيضا هم "دكاترة المجانين"!

ولا يخفي علي أحد أن استخدام هذه المصطلحات له وقع سيئ للغاية. فوصف أي شخص بالجنون لاشك هو وصمة أليمة تلصق به. وتسبب له معاناة تضاف إلى مشكلته الأصلية التي تسببت في اضطراب حالته النفسية. فكأن المصائب لا تأتي فرادى بالنسبة لمرضي النفس الذين هم في أشد الحاجة إلى من يتفهم معاناتهم ويحرص علي عدم إيذاء مشاعرهم المرهفة. فقد يتسبب المحيطون بالمريض النفسي من أهله وأصدقائه ومعارفه في إضافة المزيد من الآلام النفسية إلى ما يعاني منه من اضطراب نفسي حين يقومون ولو بحسن نية باستخدام بعض المفردات التي يفهم المريض منها انه قد اصبح اقل شأنا من المحيطين به. ولنا أن نعلم أن معظم مرضي النفس يتميزون بحساسية مفرطة تجاه نظرة

الآخرين لهم وهذا جزء من مشكلتهم النفسية، فكأننا حين نؤذى مشاعرهم المرهفة بالإشارة أو حتى التلميح كمن يلهب بالسوط ظهر جواد متعب ومنهك أصلا.

وقد حاولت أن ابحث عن المعني اللغوي لكلمة " الجنون " بدافع الرغبة في معرفة اصلها لكنني وجدت نفسي في متاهة متشعبة، فالأصل هو كلمة "جَنَّ" وتعني اختفي، ومنها جن الليل أي اخفت ظلمته الأشياء، ومنها أيضا "الجنة" التي تعني الحديقة أو الشجر الكثير الذي يخفي ما بداخلة، أما صلة هذا الاشتقاق بالعقل فإن العقل إذا جن فإنه قد استتر واختفي، فالشخص إذن "مجنون" ويقال أيضا إن الجن وهم المخلوقات التي تقابل الإنس تأتي تسميتهم تعبيرا عن اختفائهم عن الأبصار.. وأرى أن اكتفي بذلك لأن ما قرأت من اشتقاقات وتفسيرات مختلفة لا يكفيه كتاب كامل، لكن عموما فإن ما يمكن أن نستنتجه من ذلك هو العلاقة غير المباشرة بين تعبير الجنون ووصف المرض النفسي والتي لا تتميز بالدقة حتى من الناحية اللغوية ناهيك عن الناحية النفسية حيث لا يعني الجنون أي مدلول علمي أو وصف لمرض نفسي محدد كما ذكرنا.. ، فقد قال النيسابوري في كتابه عقلاء المجانين : (شابَ الله صفاتِ أهل الدنيا بأضدادها فشاب عقلهم بالجنون فلا يخلو العاقل فيها من ضرب من الجنون) .

وأغلب الظن أنه ما من طبيب نفسي قد توصل إلى تعريف محدد للعقل الانساني و ما يطرأ عليه من تقلبات تصل الى مايعرف بوصف " الجنون" .. ومع أن العرب وصفوا حالات الجنون في مايقرب من ثمانين لفظة إلا أن الصحيح عدة ألفاظ منها: مخلوط، وممسوس، ومخبّل، ومهووس، ومُدلّه، وهائم؛ أما الألفاظ الدالة على الحمق فمنها: معتوه ,وأخرق، وأحمق، وأغفل ، وأهوج، وغيرها .و ولكننا نجد

أن بعض حالات الجنون المذكورة سابقاً قد تعتري العقلاء من البشر أحيانا فيتصفون بها ولو مؤقتا، بل قد تغلب على أحد الاشخاص الطبيعيين من العقلاء حالة منها في أحد نواحي حياته.

المعنى اللغوي لكلمة " الجنون "؟؟.. فالأصل هو كلمة "جَنَّ " وتعني إختفى، ومنها جن الليل أي أخفت ظلمته الأشياء، ومنها أيضا "الجنة" التي تعني الحديقة أو الشجر الكثير الذي يخفي ما بداخله، أما صلة هذا الإشتقاق بالعقل فإن العقل إذا جن فإنه قد إستتر وإختفى، فالشخص إذن "مجنون" ويقال أيضا إن الجن وهم المخلوقات التي تقابل الإنس تأتي تسميتهم تعبيراً عن إختفائهم عن الأبصار..

لا يوجد مرض اسمه " الجنون ":

حين نلقي الضوء على معنى كلمة ﴿الجنون﴾ من منظور الطب النفسي.. ويحكم عملي في مجال الطب النفسي - أؤكد أنه لا يوجد مرض نفسي أو عقلي اسمه " الجنون " بل إن هذا اللفظ لا يعني بالنسبة لنا في ممارسة الطب النفسي أي مدلول ولا يعبر عن وصف لحالة مرضية معينة. غير أننا لا نستطيع إنكار حقيقة هذا الوصف المتداول بصورة واسعة الإنتشار بين الناس من مختلف الفئات لوصف المرضى النفسيين (حيث يطلق عليهم المجانين) ولا يخفى على أحد أن إستخدام هذه المصطلحات له وقع سيئ للغاية. فوصف أي شخص بالجنون لاشك هو وصمة أليمة تلصق به..وقد كان تناول القرآن الكريم في آيات متعددة إلى وصف ﴿الجنون﴾ والسياق الذي فيه الإشارة إلى مفهوم الجنون دعوة للتأمل والقاء الضوء على هذا المفهوم قبل أن يتناوله الطب النفسي.

فكرة الناس بصفة عامة عن الأمراض النفسية ونظرتهم إلي مرضي النفس وما يحيط بذلك من معتقدات وتصورات غير واقعية كانت الدافع لي إلي إثارة هذه القضية الخاصة في محاولة لتصحيح المفاهيم السائدة حالياً لدى قطاعات المجتمع المختلفة ، ووضع حد للنظرة السلبية من جانب الناس نحو مرضي النفس والطب النفسي بصفة عامة .

لاشك أن هناك حاجزاً نفسياً بين الناس من مختلف فئات المجتمع ومن كل المستويات التعليمية تقريباً وبين الطب النفسي ، ويرجع ذلك إلي تبني الناس لأفكار و معتقدات هي في الغالب خاطئة وغير موضوعية وغالباً ما تكون وهمية

حول مرضى النفس، والأمراض العقلية التى يصفها العامة فى كلامهم بالجنون، كما يصفون كل من يتردد إلى الطب النفسى بالاختلال أو ما يلقبونه " المجنون " وحتى الأطباء النفسيون الذين يعالجون هؤلاء المرضى كثيراً ما يطلق عليهم بعض الناس " دكتور المجانين" ، ويشيع استخدام هذه المفردات رغم أنها لا تعنى أى شىء بالنسبة لنا فى الطب النفسى ولا تدل على وصف لأى حالة مرضية !.

لكن الأهم من ذلك والأخطر أن هذا الحاجز النفسى بين الناس وبين كل ما يتعلق بالطب النفسى يدفعهم الى الإبتعاد تماماً عن الاستفادة بأى خدمات تقدمها المصحات والعيادات النفسية حتى وهم فى أشد الحاجة إلى العلاج النفسى أثناء إصابتهم بالأزمات والاضطرابات النفسية المختلفة لأى سبب، فترى المريض وأهله يترددون ألف مرة فى الذهاب لعرض الحالة على الطبيب النفسى رغم اقتناعهم بأنه بحاجة إلى الفحص والعلاج النفسى وذلك خوفاً من الوصمة التى تحيط بكل من تردد إلى الأطباء النفسيين أو حتى يتعامل معهم!.

الجنون

بين الامس واليوم

الاضطراب العقلي أو الجنون مرض قديم قدم الانسانية . ولقد سجل لنا التاريخ وصفاً لهذا المرض في اوراق البردى التي تركها قدماء المصريين قبل الميلاد بحوالي ١٥٠٠ عام . وهذا اول تاريخ مكتوب يتم رصده فيما ترك ليصل الينا من اوراق البردى التي تم العثور عليها وترجمة محتواها . ومما ورد في هذا التاريخ ان هذا المرض كان موجوداً بصوره تشبه تماماً ما نراه الآن . وان هذه الحالات كان يتم تشخيصها وعلاجها ايضاً ببعض الطرق في مصر القديمة . كما وردت بعض الدلائل علي وجود الامراض العقلية والنفسية في الحضارات الاخرى .

نبذة تاريخية :

لعل من اول ما سجلة التاريخ المكتوب أن " امحتب " الذى لقب فيما بعد "ابو الطب " قد اسس في مدينة " منف " القديمة في مصر معبداً تحول الي مدرسة للطب . ومصحة لعلاج الامراض البدنية والنفسية . وقد ورد في مراجع التاريخ ايضاً ان الأمراض النفسية - ومنها الفصام والهوس والاكتئاب - كان يتم الاهتمام بها وعلاجها بوسائل وطرق تتشابه كثيراً مع الطرق المستخدمة في العلاج في وقتنا الحالي . فقد ورد وصف للأنشطة الترفيهية والعلاج بالماء واستخدام الايحاء والعلاج الديني للإضطرابات النفسية . كما احتوت الدراسات القديمة علي بعض النظريات التي تربط الامراض النفسية بحالة الجسم وامراض القلب . وهذا يتماثل مع

النظريات الحديثة التي تؤكد العلاقة بين الجسد والنفس ، وبين الأمراض العضوية والأمراض النفسية .

لقد ورد في كتب العهد القديم قصة " شاؤول " الذى اصابته الارواح الشريرة بحالة الجنون أو المرض العقلي دفعه الي ان يطلب من خادمه ان يقتله ، وعندما رفض الخادم الانصياع لأمره اقدم هو علي الانتحار.

وفي كتابات الاغريق هناك بعض الاشارات عن طريق الاساطير ، وعن طريق الشعر والادب الي حالات تشبه الجنون أى الفصام والهوس والاكتئاب وهذه أمثلة المرض العقلي بمفهومه الحالي ، فقد ورد في " جمهورية افلاطون " بعض التفاصيل عن حقوق المرضي النفسيين ، وكيفية علاجهم والعناية بهم ، وقد كان " ابقراط " الذى اطلق عليه " ابو الطب " من اوائل الذين وصفوا حالة الاكتئاب ونقيضه "مرض الهوس" وصفاً لا يختلف عن الوصف الحالي ، وقد ربط " ابقراط " بين الجسد والروح ، أو " بين الجسم والعقل " ، واكد وجود تأثير متبادل بينهما ، كما توصل الي ان المخ هو مركز الاحساس وليس القلب ، وكان بذلك صاحب نظرة شاملة في الطب العضوى والنفسي ، وقام الاطباء الرومان بوصف بعض الأمراض العقلية ومن بينها الاكتئاب ، وتم تصنيفه الي نوع خارجي ونوع داخلي مثل بعض التصنيفات الحديثة في الطب النفسي.

تاريخ حقوق المجانين:

تشير الدلائل إلى أن حقوق المرضى النفسيين كانت موضع اهتمام بدرجات متفاوتة منذ القدم ، فحين نتتبع فى لمحة تاريخية بداية الإهتمام بحقوق المريض

النفسي نجد أن قدماء المصريين قد سجلوا على أوراق البردى ما يؤكد إحترام هؤلاء المرضى وحقهم فى العلاج والمعاملة الكريمة والقواعد التى تحتم مساعدتهم وعدم التعدى عليهم ، وقد أكد "أبقراط" *Hippocrates* الذى لقب بأبى الطب أن الأمراض النفسية والعصبية لا تختلف عن الأمراض العضوية بعد أن كان يعتقد أن لها قدسية خاصة ويحيط بها الغموض مثل مرض الصرع ، وجاء الإسلام بتعاليمه ليعيد إلى هؤلاء المرضى كرامتهم ويضع الأسس التى تنظم الحياة ويمنع المساس بحقوق الإنسان فى حالة الصحة والمرض ، وفى الوقت الذى كان مرضى النفس يعاملون بقسوة فى أوربا ويتعرضون للضرب والحرق والتعذيب فى القرون الوسطى إعتقادا بأن الأرواح الشريرة تلبس أجسادهم تم بناء أول مستشفى لعلاج المرض العقلى فى بغداد عام ٧٠٥ م . وأدخلت المستشفيات والمصحات النفسية مع الفتح العربى للأندلس فكانت بداية لدخول العلاج بالطرق الإنسانية المتطورة إلى اوربا .

وكان السبق لمصر قبل ما يقرب من ٦٠٠ سنة بإنشاء "بيمارستان" أو مستشفى قلاوون بالقاهرة الذى ضم قسماً لعلاج الأمراض العقلية بجانب أقسام الجراحة والطب الباطنى وأمراض العيون ، وجاء العصر الحديث ليشهد تطورا هائلا فى أساليب العلاج ، وبدأ إستخدام الأدوية الحديثة التى غيرت الكثير من أوضاع المرضى النفسيين حيث تزايدت فرص الشفاء من المرض النفسي فى العصر الحالى أكثر من أى وقت مضى ، وقد شهدت بلدان العالم عموما ومنطقة الشرق الأوسط التى تضم الدول العربية والإسلامية تحسنا حقيقيا فى النواحى الصحية بصفة عامة والصحة النفسية كما تذكر تقارير منظمة الصحة العالمية وفي إقليم

شرق البحر المتوسط بمنظمة الصحة العالمية - ويمتد من المغرب غربا حتى باكستان شرقا - تم وضع توصيات خاصة لتشريعات الصحة النفسية والقوانين التى تكفل حماية المرضى النفسيين . ومنذ ذلك الحين تمت الموافقة على قوانين للصحة النفسية فى بعض البلدان . وتحاول بلدان أخرى إعادة صياغة تشريعات مناسبة بينما تعتمد دول أخرى على التشريعات القديمة . أو لا توجد بها تشريعات مستقلة خاصة بالصحة النفسية . ولايزال الموقف القانونى بالنسبة لحقوق المرضى النفسيين على هذا الوضع لكن الحاجة تظل قائمة إلى قوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية لمعالجة القضايا المتصلة بحقوق المرضى النفسيين.

وتحتوى الكتابات القديمة علي وصف لوسائل العلاج المتبعة في ذلك الوقت ومنها ضرب المرضي . او منع الطعام عنهم حتي يتم حفز الذاكرة . واعادة الشهية للمريض . واستخدام وسائل التسلية والترفية مثل الرياضة والموسيقي وقراءة بعض النصوص للمريض بصوت عال . كذلك استخدام التغذية الجيدة وحمامات المياة ونقل المريض الي بيئة ملائمة للراحة والهدوء النفسي .

تطور الطب والعلاج النفسي :

شهدت العصور الوسطي في اوربا تخلفا حضارياً انعكس علي النظرة الي المرضي النفسيين . وطرق التعامل معهم واساليب علاجهم . وكان هؤلاء المرضي في اوربا يتعرضون للقسوة الشديدة في التعامل معهم عن طريق الحرق والغرق والضرب بقسوة . والعزل في اماكن غير ملائمة ظناً بأنهم تتلبسهم ارواح شريرة وفي نفس هذا الوقت خلال القرون الوسطي وبالتحديد في القرن الرابع عشر

الميلادى تم انشاء اول مستشفي "بيمارستان" حمل اسم "قلاوون" في القاهرة ، وتم تخصيص مكان في هذا المستشفي لعلاج المرضي العقليين بطريقة آمنة للمرة الأولي وبعد ان ظل التفكير في ان المرض النفسي هو نتيجة للسحر ومس الجن والأرواح الشريرة سائداً لوقت طويل من الزمان بدأ التفكير العلمي في علاج هذه الأمراض بصورة تشبه علاج الامراض العضوية الأخرى .

وبعد مرور مئات السنين حدث تطور في اوربا وامريكا شمل وسائل العلاج بصفة عامة ، وعلاج الامراض النفسية علي وجه الخصوص، حيث ظهرت فكرة المصحات العقلية والمستشفيات المفتوحة كبديل للاماكن المغلقة التي تشبه السجون ، والتي كان يوضع بها المجانين أو المرضي النفسيين ، ثم ظهرت فكرة المستشفيات النهارية التي يمضي المريض بها وقته اثناء النهار حيث يتناول الطعام والعلاج ثم يعود الي منزله ليلاً ، كذلك بدأت فكرة المستعمرات المتسعة التي يعيش بها المرضي وسط الاسوياء ، والحاق بعض المرضي ليعيشوا مع بعض الاسر التي تقبل القيام برعايتهم وتقدم لهم المعونة للتخلص من حالتهم المرضية .

وبداية من القرن الماضي اثمر التفكير العلمي في الأمراض النفسية بصفة عامة عن ظهور النظريات الحديثة التي تحاول تفسير اسباب الأمراض النفسية ووصف علاماتها ، وتم للمرة الأولي تصنيف الأمراض النفسية بأسلوب علمي يخضع للمراجعة المستمرة ، وكان العالم " كريلن " اول من فصل بين حالات الاكتئاب والهوس ووصف مرض الفصام ، ثم جاء عالم النفس الشهير " فرويد " (١٨٥٦-١٩٣٦) بنظرياته التي احدثت ثورة كبيرة في مفاهيم الأمراض النفسية، ثم تعرضت هذه النظرية الي بعض النقد والتعديل فيما بعد ، وتقوم نظرية " فرويد "

بالنسبة لمرض الاكتئاب علي انه نتيجة مباشرة لفقد شئ هام بالنسبة للفرد ونتيجة للضغوط والعوامل المحيطة به . ولقد ادخل فرويد للمرة الأولي بعض المفاهيم مثل تكوين الشخصية من " الأنا " الذى يمثل الواقع . و" الهو " الذى يمثل الغرائز . و " الأنا الأعلي " الذى يمثل الضمير . وتحدث عن مفهوم الصراع بين هذه المكونات في حالة الصحة والمرض . كما ظهرت نظريات اخرى فيما بعد تفسر حدوث الأمراض النفسية بأنها نتيجة لتغيرات كيميائية .

الجنون .. الوضع الراهن:

لعل اهم التغيرات التي حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين هي ثورة الكيمياء والعقاقير التي نتج عنها تغير الكثير من المفاهيم التي كانت سائدة من قبل ورغم ان مدة هذه الثورة لا تزيد عن نصف قرن الا انها اسفرت عن الكثير من الاكتشافات في مجال الأدوية التي تساعد علي علاج الكثير من الحالات بصورة لم تحدث من قبل . وقد تم اكتشاف معظم الادوية النفسية وفي مقدمتها دواء "كلوربرومازين " بالصدفة حين تبين ان له تأثير مهدئ علي الجهاز العصبي . ثم توالت فيما بعد الاكتشافات الطبية. وتصنيع الادوية الحديثة الي تعيد الاتزان النفسي لمرضي الاكتئاب .

ومن خلال الابحاث التي تم اجرائها في هده الفترة فقد تبين حدوث تغيرات كيميائية في الجهاز العصبي سوف نشير الي البعض منها في مواضع تالية ترتبط بحالة الاضطراب العقلي أو النفسي . حيث ثبت ان نقص هذه المواد ومنها "دوبامين" و " السيروتنين " و "نورابنفراين " يؤدى الي تغير في الحالة المزاجية

وظهور اعراض الفصام والهوس والاكتئاب ، ومن هنا كان التركيز في ابحاث الادوية الحديثة علي اعادة الاتزان الكيميائي الذى يؤدى الي تحسن واضح في حالة هؤلاء المرضي ، وظهرت اجيال جديدة من هذه الادوية يتم استخدامها الان علي نطاق واسع ، ويتم تحسينها بصورة منتظمة للحصول علي افضل النتائج دون اعراض جانبية مزعجة .

وإذا كان هذا التقدم العلمي قد اسفر عن بعض الامل في التغلب علي مشكلة المرض العقلي فإننا رغم ذلك نقول ان الطريق لا زال طويلا للوصول الي حل حاسم لهذه المشكلة ،ولا تزال مسيرة العلم مستمرة دون توقف لتحقيق تقدم في المعركة مع الاضطرابات النفسية التي تصيب الانسان وتؤثر علي حياته ، وهذه المعركة كما رأينا قديمة قدم الإنسانية و لاتزال مستمرة حتي يومنا هذا .

الجنون ..
ملاحظات ومعلومات

هناك الكثير من المعتقدات الخاطئة تحيط بالطب النفسي ، والمرضي العقليين ، والأمراض النفسية بصفة عامة ، وهذه المعتقدات قد تصل أحياناً الي مستوى الخرافة لكنها تجد من يصدقها ، فهل تصدق - عزيزى القارئ - ان هناك من يعتقد بأن الأمراض العقلية تنتقل من شخص الي آخر عن طريق العدوى مثل الانفلونزا ! بل إنهم يبالغون في ذلك فيؤكدون ان الابتعاد عن المجانين احتياط ضرورى لمنع انتقال المرض ، لقد اثار ذلك اهتمامي بصفة خاصة لأن بعض الناس وجه الي في بعض المناسبات سؤالا طريفاً لا اعلم ان كان علي سبيل المزاح ام انها فكرة جادة ، لقد سئلت ما إذا كان الطبيب النفسي يتأثر بعد حين فتنتقل اليه بعض الصفات من مرضاه بحكم طول المخالطة ؟ لقد اضحكني هذا التساؤل لكنني لاحظت ان محدثي ينظر الي بتركيز شديد ، لقد كانت نظراته ذات مغزى فقد كان يبحث عن إجابة لسؤاله !!

خدعوك فقالوا .. !:

اما المعتقدات الوهمية حول المرضي النفسيين فهي كثيرة ومتنوعة ، ولعل الغموض الذى يحيط ببعض الموضوعات والظواهر النفسية هو الدافع الي نسج الخيال حول أسباب المرض النفسي والقوى الخفية التي يمكن أن تكون وراءه ، فمن قائل بأن مس الجن او دخول الشياطين الي جسد الإنسان هو الذى يصيبه بالخلل العقلي ويؤثر في اتزانه فيقلب كل موازينه رأسا علي عقب ، وكثيرا ما يخبرنا

المرضي واهلهم عن واقعة ما بدأت بعدها علامات المرض النفسي في الظهور مثل السقوط في مكان مظلم او الفزع من موقف محدد . أو مشاهدة كلب أسود ! .

وكثيرا ما يرجع المريض وأهله كل ما أصابه الي عين الحسود بل قد يحدد مصدر هذه العين وصاحبها ويظل اسيرا لهذه الفكرة فلا يستجيب لأى علاج او يسيطر علي الشخص أنه ضحية لعمل من السحر ولن يشفي من مرضه النفسي حتي يتم فك هذا العمل بواسطة مختصين وليس عن طريق الطب النفسي . إن علينا كأطباء نفسيين ان نستمع الي كل ذلك وأن نحاول تصحيح المفاهيم والمعتقدات بالإقناع وبأسلوب هادئ .

ظاهرة الجبل الجليدى :

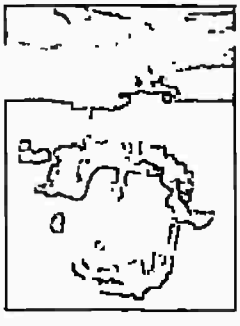

تعتبر ظاهرة الجبل الجليدى " Iceberg " من الأوصاف التي يتم التعبير بها عن الظواهر التي يختفي الجزء الأكبر منها بينما يبدو علي السطح الجزء الأقل

وعلاقة ذلك بالجنون .. ان مشكلة المرض العقلي بحجمها الهائل لا يمكن الاحاطة بها عن طريق الارقام والاحصائيات ، وكل ما نراه من حالات هو مجرد الحالات الحادة والواضحة ، بينما يوجد اضعاف هذه الحالات من المرضي الذين يعانون في صمت ، ولا يكتشف احد حالتهم لانهم لا يذهبون الي الأطباء ولا يطلبون العلاج والدليل علي ذلك الدراسة الميدانية الموسعة التي اجريت في خريف عام ١٩٧٤ واشترك فيها حوالي ١٥ الف طبيب ينتمون الي عدة بلدان منها المانيا و فرنسا واستراليا و سويسرا وغيرها ، وقد اظهرت نتائج هذه الدراسة الموسعة ان ما يقرب من ٨٠٪ من المرضي المصابون بواحد من أكثر الامراض النفسية انتشارا وهوالاكتئاب لا يذهبون الي الأطباء ولا يتم اكتشافهم ، اما البقية الباقية من الحالات فإن ما يقرب من ١٣-١٥٪ منهم يذهبون الي الاطباء الممارسين ، والذين يعملون في التخصصات المختلفة غير الطب النفسي ، ولا يذهب الي الأطباء النفسيين سوى ٢/ فقط من مرضي الاكتئاب . وهناك نسبة من المرضي يقدمون مباشرة علي الانتحار دون ان يتم تشخيص حالتهم.

الجنون في بلاد العالم:

تشير الإحصائيات عن انتشار الجنون - أو بتعبير علمي أدق الامراض العقلية - في الدول الأوربية والولايات المتحدة الي زيادة نسبة الاصابة بها حيث ذكرت بعض الدراسات ان المرض النفسي والعقلي ينتشر في كل الطبقات الاجتماعية ، وخصوصاً في طبقات المجتمع العليا والدنيا مقارنة بالطبقة الوسطى وفي دراسة اجريت في مدينة شيكاغو الأمريكية لانتشار الامراض النفسية في احياء

المدينة لوحظ زيادة انتشار حالات الاكتئاب النفسي في الاحياء الراقية بالمدينة بينما لوحظ زيادة انتشار مرض الفصام العقلي " شيزوفرنيا" في الاحياء الفقيرة ولقد ادى ذلك الي التفكير في ارتباط زيادة الاصابة بالاكتئاب بارتفاع المستوى الاجتماعي . وتشير الارقام عن انتشار الاكتئاب في بعض الدول الاوربية الا ان مرضي الاكتئاب يشكلون ٢٠-٣٠٪ من مجموع المرضي النفسيين .

ورغم عدم وجود احصائيات موثوقة في دول العالم الثالث حول انتشار الجنون أوالأمراض النفسية والعقلية بصفة عامة . فإن بعض الدراسات تشير الي ان ما يقرب من ٢٠٪ من المرضي الذين يترددون علي العيادات النفسية في مصر يعانون من الامراض العقلية التي تتطلي رعاية عاجلة . ورغم ان الارقام التي ذكرتها منظمة الصحة العالمية مؤخراً عن عدد حالات الانتحار في العالم تدل علي زيادة هذه الحالات تصل الي ما يقرب من مليون شخص كل عام . فإن نسبة الانتحار في المجتمعات الشرقية تظل اقل كثيراً من دول اوربا وامريكا نظراً لتعاليم الدين الاسلامي الواضحة بشأن تحريم قتل النفس . لكن هناك الكثير من المؤشرات التي تدل علي وجود حالات الجنون أو المرض العقلي في المجتمعات الشرقية بنسبة تقترب من انتشار الحالات في الدول المتقدمة .

الجنون بين الرجل والمرأة :

تشير الارقام الي زيادة انتشار بعض الامراض النفسية ومنها على سبيل المثال الاكتئاب النفسي لدى المرأة بنسبة تفوق حدوث هذه الحالات بين الرجال في بعض الدراسات تقدر نسبة الاصابة بالاكتئاب بين المرأة والرجل بحوالي ٢:١

وفي دراسات اخرى وجد ان هذه النسبة ٢:٣ ويدل ذلك علي ان مقابل كل حالة اكتئاب في الرجال يوجد حالتين في النساء أو مقابل كل حالتين في الرجال يوجد ثلاث حالات في السيدات . وتشير احصائيات اخرى الي ان احتمال اصابة المرأة بالاكتئاب علي مدى سنوات العمر يصل ٢٨ في الألف بينما يبلغ في الرجال حوالي ١٥ في الألف .

ولد ساد لوقت طويل اعتقاد بأن فترة توقف الحيض " *Menopause* " بالنسبة للسيدات والتي يطلق عليها تجاوزاً مصطلح " سن اليأس " ترتبط بزيادة حدوث الاكتئاب النفسي غير ان هذه المرحلة من الناحية العملية لا يوجد بها زيادة في نسبة حالات الاكتئاب مقارنة بمراحل العمر الاخرى وربما اسهمت التغيرات البيولوجية التي تحدث للسيدات في هذه المرحلة مثل تغييرات في افراز بعض الهرمونات الانثوية في زيادة حدوث بعض الاعراض الجسدية التي تؤدى بدورها الي اضطراب التوازن النفسي لكن ما يطلق عليه " اكتئاب سن اليأس " هو حالة لم يعد لها وجود في مراجع الطب النفسي الحديث .

وبالنسبة للرجال فإن تقدم العمر والتقاعد قد يرتبط بزيادة في فرص الاصابة بالاضطرابات النفسية وتشير بعض الإحصائيات الي ان نسبة الاكتئاب تصل الي ١٥/ في المسنين (فوق سن ٦٥ سنة) وقد يرتبط ذلك بزيادة فرص الاصابة بالامراض الجسدية في فئة المسنين بصفة عامة والتي تعرف بأمراض الشيخوخة كما تؤكد دراسات من المملكة المتحدة ان نسبة الانتحار بين مرضي الاكتئاب من المسنين حيث يشكل المسنون الذين تزيد اعمارهم عن ٦٥ سنة ما يقرب من ٢٥/ من حالات الانتحار في المملكة المتحدة وتزيد نسبة الانتحار في الرجال عنها في

السيدات ويمثل ذلك مشكلة كبرى بالنسبة لجهات الرعاية الصحية والنفسية هناك .

واخيراً فإن هذه الارقام التي تم عرضها من الشرق والغرب من واقع التقارير الاخيرة عن انتشار الجنون أو المرض العقلي والنفسي لابد ان تعطي مؤشراً علي تزايد هذه المشكلة في كل بلاد العالم وتؤكد ضرورة الاهتمام برصد هذا المرض وتعاون كل الجهات لمواجهته .

أعباء الجنون :

هناك اعباء اقتصادية واجتماعية وصحية للمرض العقلي بالاضافة الي المعاناة النفسية ، واليأس القاتل الذى يكلف الانسان حياته في بعض الاحيان حين يفكر في التخلص من هذه المعاناة بأن يضع نهاية لحياته بالانتحار ، ومرض الاكتئاب على سبيل المثال يعتبر من اكثر الحالات التي تؤثر علي الانتاجية في العمل واستهلاك الخدمات الطبية ، كما ان المريض العقلي يؤثر سلبياً علي افراد اسرته ، ويمتد تأثيره الي المحيطين به من زملاء العمل والاصدقاء ، وتمثل العناية به مشكلة حقيقية للمريض ولأهله ، وللطبيب المعالج ، وللمجتمع بصفة عامة .

ويرتبط المرض العقلي بسلسلة من المشكلات الاخرى ، فمن الناحية الصحية ثبت علاقة المرض النفسي بالتأثير السلبي علي مناعة الجسم مما يمهد الطريق للإصابة بأمراض اخرى مثل السرطان ، وامراض القلب والشرايين ومجموعة اخرى من امراض العصر المعروفة ، ومن الناحية الاقتصادية فإن تأثير المرض العقلي علي حياة المريض تمنعه عن ممارسة عمله المعتاد او كسب العيش ويؤدى الي مشكلات اسرية تؤثر في المريض ومن حوله ، ومن الناحية الاجتماعية فإن العزلة التي يفرضها إصابة المريض بالجنون تؤدى الي قطع الصلة بين المريض وبين المحيطين به ، وعدم مشاركته في الحياة الاجتماعية ، ويعتبره الجميع عبئاً عليهم حيث لا يستطيع مساعدة نفسه او من يقوم برعايتهم ، وكل هذه تمثل التكلفة التي تنشأ عن الاصابة بالمرض العقلي، علاوة علي المعاناة ومشاعر اليأس القاتل التي تمثل عبئاً هائلاً لا يمكن ان يتصوره احد الا من يمر بهذه التجربة بالفعل

ومن علامات وصف هذا العصر الحالي الذى يعيشه العالم اليوم بأنه "عصرالجنون" أو "عصر القلق و الإكتئاب " وجود اسباب تدفع الي التنبؤ بزيادة اعداد المرضي العقليين مع مرور الوقت في ظل التطورات الحضارية السريعة

والبيئة الاجتماعية المتغيرة ، والصراعات والحروب التي تسود في أماكن كثيرة من العالم .. إن ذلك من شأنه ان يؤدى الي فقدان الاستقرار وانعدام شعور الامن والتفكك الاجتماعي ، وكل هذا يمهد الطريق الي مزيد من حالات الجنون أو الاضطراب النفسي بما يؤدى الي تفاقم المشكلة مع الوقت رغم كل الجهود التي تبذل لمواجهة هذه المشكلة والتي لم تفلح حتي الآن في احتوائها حيث لم تفلح وسائل التقدم الحضارى وتقدم وسائل الرعاية الصحية وابتكار الادوية الحديثة الا في زيادة متوسط العمر للإنسان . لكن كل ذلك لم يسهم في الحد من تزايد انتشار المرض النفسي في هذا العصر .

الجنون.. وحالات الهياج:

من المشاهد التي نراها أحيانا بعض المرضي النفسيين الذين يصفهم الناس بأنهم "مجانين" في حالة هياج شديدة حيث يعتدي بعضهم علي الآخرين ويحطم الأشياء ، فما سبب هذه الحالات ؟ وكيف يمكن السيطرة عليهم ؟.. إن حالات الهياج والثورة الحادة المصحوبة بأفعال عدوانية وتصرفات اندفاعية من المريض والتي قد تنتابه في نوبة عنف هي أحد المظاهر الهامة للاضطراب العقلي التي عادة ما يتعين علي الأطباء النفسيين مواجهتها حيث تعتبر أحد أهم الطوارئ النفسية التي تحتاج إلي تدخل علاجي سليم للسيطرة عليها ، ويكون الموقف عادة لشخص قد فشل المحيطون به في السيطرة علي تصرفاته أو إقناعه بأن يهدئ من ثورته .

وهذه الحالات رغم أنها تتشابه في المظهر العام أثناء نوبة الهياج إلا أنها ليست في العادة نتيجة لمرض واحد بل تنشأ عن أمراض نفسية وعصبية مختلفة

مثل الفصام ، والهوس ، والبارانويا ، واضطراب الشخصية المضاد للمجتمع، ومرض الصرع ، وغير ذلك من الاضطرابات ، ويستطيع الطبيب النفسي بخبرته عادة تحديد المرض المسبب لحالة الهياج حيث يختلف العلاج في كل حالة .

لكن يبقي من المهم كإحدى الأولويات السيطرة علي العنف الذي يوجهه المريض إلي كل ما يحيط به . ويتم ذلك عن طريق الحد من حركة المريض واستخدام بعض العقاقير عن طريق الحقن بجرعات مناسبة حتى يهدأ . لكن الإمساك بالمريض قد يحتاج إلي بعض الخبرة وقد يتم إلقاء بطانية عليه ثم تقييد حركته حتى يمكن حقنه بالدواء ، وعادة لا يتطلب الأمر ذلك سوى مرة واحدة في البداية بعدها يتم علاج المريض بالطريقة المناسبة حسب المرض المسبب .

الجنون بين الشرق والغرب

هل تبدلت صورة الجنون علي مر العصور؟.. اى علي سبيل المثال هل المريض العقلي في اوربا اليوم يشبه ما كان عليه الحال قبل قرن او قرنين من الزمان ؟ وهل تختلف صورة الجنون من مكان الي آخر في بلدان العالم ؟او هل نتوقع ان يشكو مريض الجنون في انجلترا من نفس المظاهر التي يشكو منها آخر في الهند وثالث من اليابان ، وآخر في مصر، او احد افراد القبائل البدائية في افريقيا ؟

لقد شغلت هذه الاسئلة علماء النفس ردحاً من الزمان فراحوا يبحثون عن اوجه الشبه والاختلاف بين حالات الامراض النفسية في بلدان العالم المختلفة ، ويعقدون بينها المقارنة ، ثم يفتشون في ما كتب عن عصور سابقة لمقارنته بما هو معروف في عالم اليوم .

علاقة الجنون بالزمان والمكان :

من الثابت ان المرض النفسي في اسبابه وطريقة التعبير عنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً يعرف " بالثقافة " التي ينتمي اليها الفرد ، ولا اعتقد ان استخدام تعبير "ثقافة " يفي بمعني الاصل الاجنبي للكلمة (Cultre) ، فهو اشمل ويعني مجموعة التقاليد والقيم والمعتقدات ، كما يتضمن السلوكيات المميزة للجماعة والصفات التي تنتقل عبر الأجيال ، ومن هنا كان للثقافة ابعاد اجتماعية وانسانية عميقة ولها تأثيرها الجوهرى علي حياة الانسان وحالته النفسية في الصحة والمرض ، واى تغيير او تبديل يعتريها لابد ان يؤثر في الافراد الذين ينتمون اليها .

ولا خلاف علي وجود تشابه كبير بين الناس حين يعبرون عن مشاعرهم الانسانية في المواقف المختلفة وفي اماكن العالم المتباعدة . فعلي سبيل المثال لا يمكن لأى منا ان يخطئ تعبير الوجه في حالة الكآبة والشعور بالألم لدى اى انسان وذلك ينطبق علي الاشارات والتعبيرات المختلفة مثل الامتنان والتحية والامتعاض . لكن الخلفية الثقافية لدى كل منا تختلف بإختلاف البيئة الزمانية والمكانية . واثرها موجود في كل الاحوال.

ونظرة علي عصور سابقة وما كان من امر مرضي النفس نجد ان كلما تبدل هو طريقة التعبير عن مشاعر الكآبة والقلق . فقد لاحظ بعض الكتاب ان المريض النفسي في اوربا في القرن الماضي كان يأتي الي طبيبه فيقول انه ارتكب خطأ لا يغتفر . ويشكو من ان قلبه قد تحول الي مايشبه الحجر الاصم . او ان امعاءه قد سدت . بينما يتحدث المريض في عصرنا الحالي عن مصاعب العمل . او خسائر مادية اصابته . او تعثر في خططه الطموحة في الحياة !

الخلفية الثقافية والاجتماعية لمرضي الجنون :

لتأكيد علاقة الثقافة بجوانب هامة في موضوع الجنون نجد انه بالنسبة لأسباب الامراض النفسية الشائعة في كل المجتمعات مثل التعرض للصدمات المختلفة كفقد احد الاعزاء بالوفاة . او خسارة الثروة . لا يكون لهذه المواقف نفس الاثر المتوقع في بعض الثقافات . وقد نتعجب اذا علمنا انه في بعض البيئات الاجتماعية ينظر الي الموت علي انه مناسبة طيبة وليس كارثة كما يرى الغالبية فهو يعني الخير للمرء يتحرر روحه من قيود الجسد التي تكبلها . ويرون ان فقد الثروة

لا يدعو للأسي بل هو مناسبة للسرور حيث اعفي الانسان من مسئولية ادارة المال وتبعاته وهمومه ! وعلي ما يبدو ذلك من الغرابة فإنه يذكرنا بحقيقة ان فهم الانسان منا وادراكه لموقف ما . والطريقة التي يفسر بها الامور في صالحه او عكس ذلك مستنداً الي خلفيته الثقافية والاجتماعية، هي الفيصل في نمط استجابته وتأثره . وليس طبيعة الموقف في حد ذاته . ودليل ذلك اننا اذا كنا في مجموعة من عدة اشخاص وحدث لنا موقف واحد فإن كل منا يكون له احياناً رد فعل خاص يختلف عن الآخرين .

وهناك بعض الاوضاع تتعلق بالخلفية الثقافية والاجتماعية . وينتج عنها ضغوط نفسية قد تؤدى الي استجابة الفرد بالجنون .. من هذه الاوضاع اغتراب الفرد عن موطنه . وانفصاله عن الثقافة الام . وعدم قدرته لي التأقلم في المجتمع الجديد سواء كانت هجرته اختيارية او رغماً عنه . وقد يطرأ التغيير الثقافي علي الفرد وهو في بيئته دون ان ينتقل . فتتبدل القيم والاعراف مثل ما يحدث في اعقاب الحروب . والكوارث الطبيعية . والاحتلال . ويكون لذلك آثار جماعية علي الافراد . و قد يحدث الاضطراب لدرجة الجنون . كذلك فإن الكثير من المجتمعات الشرقية قد حدث فيها تغيير حضارى سريع في الأونة الاخيرة كان له تأثير سلبي من الناحية النفسية لعدم قدرة الافراد علي مواجهة متطلبات هذا التغيير وتبعاته فصاروا اقل مناعة في مواجهة الاضطرابات النفسية .

الثقافة وصورة الجنون :

هناك اثر عميق للثقافة علي صورة المرض العقلي من اعراض ومظاهر في المجتمعات المختلفة . فالواقع ان وصف الجنون كما يحدث في بلاد الغرب يتضمن عدة مظاهر نفسية وبدنية . ولكن دراسات اجريت في بلاد العالم الثالث اكدت ان غالبية المرضي يشكون من اعراض بدنية فقط . ولتوضيح ذلك فإن مريض الاكتئاب البريطاني او الامريكي حين يذهب الي الطبيب النفسي فإنه يصف له كيف يشعر بالحزن . ويتخيل انه قد اقترف خطيئته . وما يجده من صعوبات في التكيف في عمله وفي انشطته . بينما مريض الاكتئاب في الهند او في مصر مثلاً لا يتحدث عن اى شئ من ذلك. بل يخبر الطبيب بأنه يعاني من آلام في جسده . ولا ينام جيداً . ولم تعد قدرته الجنسية كسابق عهدها ! والتعليل لذلك التباين والاختلاف في صورة الاكتئاب بين المجتمعات المختلفة في الشرق والغرب هو من وجهة نظرنا ان المرضي لدينا يعتقدون بأن الاطباء لا يعالجون الا الامراض البدنية . ولا يتوقعون الا سماع شكاوى واقعية ملموسة من المرضي مهما كانت حالتهم اما في الغرب فيختلف الحال حيث يمكن للمرضي وصف مشاعرهم واحاسيسهم بطريقة دقيقة .

وهناك نقاط اخرى للتباين في صورة الامراض النفسية بين الشرق والغرب فالشعور بالأثم يكثر في الثقافات الغربية . وكذلك الانتحار حيث تزيد نسبته بصورة كبيرة في دول الغرب بصفة عامة وان تفاوتت فيما بينها . ويقل حدوث الانتحار بصفة خاصة في المجتمعات الاسلامية . ويرجع ذلك الي تعاليم الاسلام

الحنيف بخصوص قتل النفس ، كما يعود بصورة غير مباشرة الي تحريم الخمر حيث يشكل الادمان علي الخمور ثاني اسباب الانتحار في الغرب بعد الاكتئاب النفسي ، ولا يفهم من ذلك ان المرضي لدينا ليس لديهم الرغبة الداخلية في الانتحار لكنهم يترددون كثيراً عن تنفيذ المحاولة .

الجنون في بلاد العالم :

يتخذ الاضطراب النفسي اشكالاً مختلفة تتباين من بيئة الي اخرى ، وعلى سبيل المثال من خصائص الاكتئاب في معظم المجتمعات العربية انه يختفي دائماً خلف اعراض بدنية فنواجه حالات الاكتئاب المقنّع ، حتي ليخيل الي المريض والطبيب معاً ان الحالة ليست اكتئاب بل هي علة عضوية ، ومما يميز المرضي من الرجال انهم لا ينفسون عن انفسهم بالبكاء مهما اشتدت بهم مشاعر الكآبة ! .. وفي اليابان يتميز المجتمع بخصائص فريدة ، فالثقافة اليابانية متماسكة تفرض علي المجتمع مثاليات وسلوكيات لا مجال للخروج عليها ، واذكر هنا ما ورد في الصحف مؤخراً من ان عدد كبير من الطلاب في اليابان قد انتحروا لعدم انجازهم للواجبات المدرسية خلال الأجازة ! وهذا يدل علي ما يشعر به اليابانيون تجاه العمل والواجب ، وربما كان ذلك وراء زيادة انتشار الاكتئاب هناك .

وفي افريقيا يعزى العامة حدوث الجنون الي الارواح الشريرة والسحر الاسود ويقل انتشار الاكتئاب مقارنة بالهوس ، ويكون مصحوباً في العادة بميول عدوانية وفي بعض القبائل البدائية التي لا زالت تعيش في مجتمعات مغلقة في ولاية بنسلفانيا الامريكية وجد انهم يتميزون بأن الرجال اكثر إصابة بالجنون من

النساء علي عكس القاعدة المعروفة في كل بلدان العالم من ازدياد انتشار بعض الامراض النفسية مثل الاكتئاب لدى المرأة اضعاف حدوثها في الرجال ، ويعزى ذلك الي قيام النساء في هذه القبائل بكل مسئوليات الرجال وسيادتهم المطلقة في هذا المجتمع !

وبعد هذا العرض الذى تجولنا فيه مع الجنون في انحاء مختلفة من العالم وتعرفنا ونحن نجوب مختلف البيئات الثقافية والاجتماعية علي مظاهر الاضطراب النفسي للإنسان في انحاء شتي من عالمنا ، فقد يبدو لنا ان لكل مجتمع خصائصه التي تؤثر في افراده حتي حين يعانون الجنون ، ولكن الصورة في مجملها ليست كلها اوجه خلاف وتباين ، بل يغلب عليها التشابه بين الانسان في اى من هذه الاماكن خصوصاً حين يصيبه المرض النفسي ، وهذا ما اكدته دراسة واسعة اجرتها مؤخراً منظمة الصحة العالمية في عدة بلدان في وقت واحد وبإستخدام نفس منهج دراسة حالات الامراض العقلية في كل هذه المجتمعات من الشرق والغرب وجاءت النتائج لتؤكد انه لا فرق يذكر بين مظاهر المرض في هذه الاماكن المتباعدة ومهما حدثت إختلافات في التفاصيل الدقيقة ، فإن " الجنون هو الجنون " .

الجنون في التراث :

الأدب والفنون هي اشكال من التعبير عن الفكر الانساني ، وتحمل في طياتها علي مر العصور انعكاسا للمشاعر الانسانية المختلفة التي تعبر عن مواقف الحياة بما تزخر به من احداث وصراعات وخبرات سارة، واخرى اليمة ، وإحدى اهم هذه الخبرات واعمقها أثرا في النفوس هي حالة القلق والحزن والكآبة التي ما تلبث

تنتاب الانسان من حين الي آخر منذ بدء الخليقة وحتي يومنا هذا بدليل ما تركته من بصمات علي نتاجه من تراث الآداب والفنون. . و في الكتابات التاريخية الاغريقية القديمة ، ورد وصف الجنون ، وحظيت حالات الاكتئاب بالذات بوصف لا يضفي عليها في الغالب صفة المرض العقلي . فنظر اليها علي انها تغير في الوجدان والمشاعر استجابة لمآسي الحياة تارة ، ونتيجة لغضب الآلهة تارة اخرى كما تذكر الاساطير ، ومن اطرف هذه الاساطير ما يرجع آلام الانسان في هذا العالم الي ما فعلته به الآلهة حين شطرته الي نصفين ، الذكر والانثي ، وصار علي كل جزء ان يبحث ن شطره الآخر في كل العالم فلا يجد اى نصف اخر لا يتوافق معه ويستمر العذاب .

وفي تراث بلاد ما وراء النهر تدل الاساطير الهندية القديمة علي نفس الاتجاه فقد طلب احد الملوك من علمائه ان يكتبوا له كل تاريخ حياة الانسان ، فأتوا له بمجلدات هائلة تضم ما اراد ، لكنه كان يحتضر فطلب منهم تلخيص كل ما سجلوه عن حياة الانسان بإختصار شديد ، فقال له كبيرهم : " الانسان يولد ، ويتألم ويموت " ! .. و في ما وصل الينا من التراث الحضارى لمصر القديمة نجد ان الاساطير الفرعونية تعبر عن مآس متنوعة . فقصة الصراع بين الخير والشر التي ترمز لها اسطورة " إيزيس واوزوريس " ، وارتباط نهر النيل بالدموع المنهمرة ، وغير ذلك مما ارسي منذ ذلك الحين طبائع اكتئابية راسخة لا تزال قائمة في مصر حتي يومنا هذا حيث يشترك الشعب بأكمله في تقاليد عميقة للأحزان ، بينما لا يوجد للأفراح لدينا عادات بنفس العمق والاتساع .

ولقد رسم " شكسبير " في شخصياته نماذج تكاد تكون حية لحالات تعبر عن شتي المشاعر الانسانية . ومنها حالة الحزن والكآبة . ولعل في شخصية " هاملت " مثالاً لذلك حين يتحدث فيصف يأسه من كل العالم من حوله . وكيف انه قد فقد الاستمتاع بكل متع ومباهج الحياة . وفي كتاباته الادبية يتحدث " شكسبير " عن 'الحزن الذى لا يجد متنفساً بالكلام . فيهمس الي القلب فيكسره " . وهذا هو نفس مضمون عبارة مأثورة ذات محتوى علمي للطبيب الشهير " مودزلي " يقول : " إن الحزن الذى لا نعبر عنه بالدموع . يتجه الي اعضاء الجسم ويحطمها " .

وقد ارتبط الجنون بالمثالية لدى العديد من الادباء والكتاب . ومنهم "شوبنهاور " الالماني الذى حدثت في وقته واقعة الانتحار الجماعي في المانيا في مطلع هذا القرن . ويذكر لنا التاريخ ان العديد من العظماء والمبدعين في الفن والأدب والسياسة قد اتصفوا بما يشبه الاكتئاب النفسي الذى كان يبدو عليهم في احوال من التطرف تصل الي الجنون احيانا . من هؤلاء " ابن الرومي " الشاعر العربي المعروف الذى اشتهر بالتشاؤم وتوقع النحس . وشاعر فرنسا " بودلير " الذى كانت تنتابه الكآبة بأستمرار . وفي السياسة هناك " تشرشل " رئيس وزراء بريطانيا أبان الحرب العظمي الاخيرة حيث كان يعاني من الاكتئاب في اواخر ايامه وكان يتوهم عند وفاته انه مطارد من كلب اسود .

أما الشعر- وهو الكلمة المنظومة - فواحد من ارفع الاساليب التي يستخدمها الانسان للتعبير عما يجيش في نفسه من مشاعر وخلجات . ولقد بقي الشعر علي مر العصور ورغم ما حدث من تغيير في شكله ومضمونه - الوسيلة القادرة علي التعبير

اللفظي عن الشعور الانساني في مواقف الحياة المختلفة بما فيها من احداث ، وصراعات ، وانفعالات ، وخبرات سارة ، واخرى اليمة .

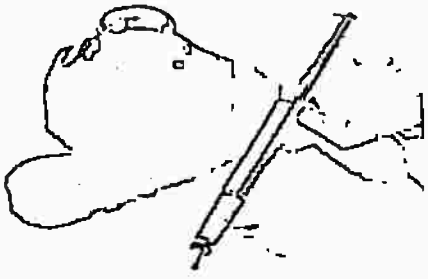

ولعل الحزن والكآبة هي من اكثر التجارب الاليمة التي يمكن ان تتحول في خيال الشاعر الي تجربة شعورية توحي اليه بأشجي الاشعار ، ولعل من فضل المصائب علي الانسان انها تعيده بالألم الي انسانيته فإذا به يتحول الي قيثارة تعزف لحناً يفيض بالشجن ، وتزدحم كتب الشعر العربي بأشعار تعبر عن هذه التجربة في مناسبات مختلفة ، وربما كان اهمها التأثر بفقد عزيز او حبيب حيث نرى من المراثي العديدة في كل العصور ما تضيق به المجلدات.